الآباء الكوليفاذس وتحدي التنوير

المتقدّم في الكهنة جورج ميتيلينوس

نقلها إلى العربية الأب أنطوان ملكي

مقدمة للمترجم

قد لا يشعر الكثيرون بالاهتمام بمحتوى هذا المقال، خاصةً الذين يقرؤون سطحياً، إذ قد لا يرون فيه إلا وصفاً وتحليلاً لحالة في تاريخ اليونان. غالبية ما ينطلق منه الكاتب قائم في تاريخ كل الكنائس. يكفي استبدال عبارة الوطن في قوله "الثنائية الروحية الطويلة الأمد كانت تلتهم جسم الوطن بشكل دائم" بعبارة الكنيسة، فيصير هذا الكلام منطبقاً على كل الكنائس الأرثوذكسية وليس اليونانية فقط، وربّما الأنطاكية أكثر من غيرها. وصف تعزيز اللامبالاة بأنها أذى التنوير الأكثر فظاعة من الإلحاد كلامٌ ينطبق على كل المجتمعات والجماعات بما فيها بلادنا وكنيستنا. ما يصفه المقال بالإبداع اللاهوتي في أعمال الكولّيفاذس التي جاءت كشهادة على الوعي الذاتي الروحي والثقافي، هو شيء نفتقده في كنيستنا. يحاول البعض النبش في المخطوطات والزوايا عن أعمال فلا يجد إلا ما ندر. السبب هو أننا في بلادنا لم نواجه الهرطقات بل سالمناها وحاول بعضنا الانتفاع منها. وإلى اليوم ما زال هناك مَن يعتقد بذلك ويدافع عنه. جمع الفيلوكاليا هي إحدى هذه إبداعات الكوليفاذس، لهذا ما تعرّضت له في بلادنا من استهتار في الترجمة والنشر ليس إلا انعكاساً لهذه الروحية التي تسعى إلى تمييع التقليد عن طريق تحويله إلى مجرد إنتاج أدبي. كما يذكر الكاتب "الانحراف الهرطوقي يسبب دائمًا وعياً وفكراً أرثوذكسيين بشكل مبدِع"، أما عندما تصير الهرطقة وجهة نظر فتصير مواجهتها تعصباً. ألا ينطبق الكلام عن اليونانيين الذين أنهوا دراستهم في أوروبا ونقلوا أخلاقيات أوروبا إلى اليونان على الأنطاكيين الذين درسوا أيضاً في ألمانيا وفرنسا وحتّى اليونان وحملوا إلينا ما حملوا؟

الأزمة التي يعالجها المقال ما كانت لتنشأ لولا أن الشعب يتبنّى عقيدته كأسلوب حياة، فالمسّ بالعقيدة كان مساوياً للمسّ بالشعب. أن تكون أزمة الهوية الوطنية أزمة روحية هو أمر ذو دلالات عميقة لم نعرفها في بلادنا. هذا الكلام لا يصحّ إلا عندما تكون العقيدة شيئاً مُعاشاً. أهمية عيش العقيدة هو أنه ينشئ التقليد الخاص بالجماعة. من هنا أن هذا المقال يساعدنا للتأمّل فعلياً بتاريخ أنطاكية وواقعها، فنصير قادرين على التعويض عن غياب التقليد الأنطاكي الذي نسمع عنه ولكننا لا نعيشه ولا نرى له آثاراً ناشطة في تاريخ كنيستنا.

عرف القرن الثامن عشر مغامرة لقاء جديد بين الشرق الأرثوذكسي والغرب. النقاط الأساسية هي تكرار للعملية المماثلة التي جرت في القرن الرابع عشر. كان فيه الآباء الكوليفاذس (Kollyvades) الآثوسيون خلفاء الهدوئيين في بيزنطية الآفلة، بينما حلّ مكان "اللاتيني اليوناني" برلعام الكاليبري حامل وداعية الوعي "الأوروبي"، ممثلو التنوير اليوناني الرسميون، وغالبيتهم من رجال الدين والرهبان، كما من قبل. هذه كانت مرحلة جديدة من الانقسام القديم على مستوى اليونان، حيث "الثنائية الروحية" الطويلة الأمد كانت تلتهم جسم الوطن بشكل دائم. تُفهم هذه الأزمة الروحية، بشكل صحيح إلى حد ما، على أنها أزمة هوية وطنية. من المهم، مع ذلك، أن جبل آثوس كان من جديد، وهو المكان الأكثر حساسية لقضايا التقاليد، محور الصراع الجديد، حيث صار مقبولاً الآن (أنظر على سبيل المثال ديميتريوس أبوستولوبولوس) أن جبل آثوس، من خلال شخصيات الكوليفاذس، لم يتأثر وحسب بل وجّه أيضًا نضال المركز الوطني في تلك الخيارات التاريخية الحاسمة.

إن حَمَلة التنوير الأوروبي اليونانيين عبّروا عن طريقة حياة قوامها إعادة تفسير جذرية للواقع الاجتماعي بأكمله، على مشارف رؤية جديدة للعالم (Weltanschauung)، مع استزراعٍ فعلي للأفكار والمبادئ والممارسات المنتَجة في الأراضي الأوروبية عبر عملية جدلية طويلة لم تكن معروفة في شرقنا. لم يكن التنوير اليوناني يفتقر إلى الإلحاد ولا إلى الميول المناهضة للمسيحية وفوق كل ذلك إلى معاداة رجال الدين. في الواقع، ما عززته أفكارهم في الضمير الأرثوذكسي هو أكثر فظاعة من "إلحادهم" الحقيقي أو الظاهر، وهو اللامبالاة. من ناحية أخرى، توجد في أعمالهم مواقف معادية للثالوث ووحدة الوجود كما يوجد مواقف تُقَوية (عند كورايس) كان من المستحيل أن لا تستفزّ الضمائر التقليدية، نظرًا لأن هذا كلّه كان جزءًا من قصدٍ، تمّ التعبير عنه بصراحة، لإضعاف الرئاسة الإثنية الرومية بهدف نهائي يتمثّل في تفكيكها. من ثمَّ، عالمٌ جديد غزا الشرقَ الرومي (الأرثوذكسي)، ما كان له أن يغلب من دون الإطاحة بعالم التقليد الأرثوذكسي.

برز الآباء الكوليفاذس كحَمَلَة للتقليد في الشرق، وهم رهبان وكهنة متعلمون مصهورون في الخبرة الهدوئية بعقلية رومية، وبالتالي هم قادرون على فهم الاختلافات الروحية عن العالم الأوروبي. لم يتردد علماء الغرب، كالبروتستانتي غوتليب ناثانيال بونويتش (Gottlieb Nathaniel Bonwetsch) أو الكاثوليكي لويس بيتي (Louis Petit)، في وصف "حركة الكوليفاذس" بأنها "نموذج عن يقظة حياة الأمة اليونانية"، بينما أصر جزء من مفكرينا على ازدراء هذه الحركة بشدة مردّها إلى أن الموقف من الكوليفية هو جزء من الموقف العام من الهدوئية وبيزنطية. لكن اليوم، صار التقييم أسهل مما كان عليه في الماضي، بسبب التقدم الكبير في تحديد المعايير القديمة التي كانت تنمو وتضغط من الداخل.

بحسب الأستاذ خريستوس ياناراس، فإن الكوليفاذس هم "حركةُ رد فعل على التغريب والتغيير" تكشف "اليقظة اللاهوتية غير المتوقعة في ذلك الوقت والوعي بأولويات الكنيسة الاختبارية". يعبِّر الكولِّيفاذس عن وعي شريحة الجماهير العريضة والقاعدة الشعبية في عصرهم، بوسائل وإمكانيات ذلك العصر، كما أيضًا بسِماتهم الشخصية. ومع ذلك، في الوقت نفسه، يؤكّدون استمرار جبل أثوس كحافظٍ للروح الآبائية. إن ردّ فعلهم على حركة ذلك الوقت، أي "نشأة الكيان الأوروبي [...] أظهر نفاذ بصيرة تاريخي وإدراك مثير للإعجاب." كان تصادم قوى الأمة اليونانية التقليدية مع أفكار التنوير أمرًا لا مفر منه لأنه، كما تمّ وصفه، جرى بين عوالم وأساليب حياة متناقضة تمامًا. على العكس من ذلك، أظهر رهبان جبل أثوس المناهضين للكوليفاذس تعاطفًا مع أفكار التنوير، وركّزوا معارضتهم على التقليد الهدوئي، ما جعلهم أقرب إلى التنوير. إن رفض بعض رهبان جبل أثوس للممارسات الهدوئية شكّل للكوليفاذس، وبوجه دقيق دليلًا ملموسًا على عواقب التوافق مع الأفكار الجديدة لأوروبا والاغتراب الوشيك.

وهكذا طورت حركة التنوير ديناميكية قوية في الوعي التقليدي للأمة اليونانية، وفي الواقع لم يكن غير سلبي وحسب بل إيجابياً أيضًا. بتعبير آخر، لم يؤدِّ التحدي فقط إلى تناقضات وحسب، كانت في كثير من الحالات قاحلة وضارة، بل أيضًا إلى عمل إبداعي من إنتاج أدبي وأعمال رعائية لإحياء الروح الآبائية في حياة الجسم الكنسي. الحق يُقال أن زعماء الكوليفاذس (ماكاريوس نوتاراس، نيقوديموس الأثوسي، أثناسيوس باروس) لم يعارضوا الحداثة كإيديولوجيا مضادة، بل هذا كان سببًا ليقظة وجودية على احتياجات الإنسان الأساسية، كما تنيرها روح جماعة (ethos) آباء التقليد الكنسي وخبرتهم". إن أعمال الكولِّيفاذس رافقت الإبداع اللاهوتي المواجه للهرطقات، وقدمت شهادة على الوعي الذاتي الروحي والثقافي، والتي لم تكن لتبصر النور كمنشورات في ظل ظروف أخرى. في آخر الأمر، هذا كان السبب المولّد لتشكيل اللاهوت في الكنيسة على مدى القرون. الانحراف الهرطوقي يسبب دائمًا وعياً وفكراً أرثوذكسيين بشكل مبدِع. هذا ما حدث أيضًا في تقليد الكوليفاذس. في الواقع، كشفت حملتهم المناهضة للتنوير، على الرغم من إخفاقاتها والمبالغات فيها هنا وهناك، عن استمرار الخبرة الآبائية الأرثوذكسية في أوقات كان الحضور اللاهوتي الأرثوذكسي ضعيفًا للغاية. لقد طوّر الكوليفاذس معارضتهم لممثلي التنوير على أساس فكرة أساسية نقاطها الرئيسية هي التالية:

أ) أوروبا: تحدث التنويريون اليونان، وأوّلهم أدامانتيوس كورايس، بفخر عن "أوروبا المستنيرة"، التي نقلوا "أضواءها" إلى الأمة اليونانية. إن التوجه نحو أوروبا كان رؤية دائمة عند الاتحاديين لعدة قرون، أدى إلى نشوء "متلازمة الأورَبَة (Europeanization)" في الهلينية الحديثة التي جعلت أوروبا "حاضرتها العالمية". لقد كان الكولِّيفاذس مخلصين لتقليد مناهضي الاتحاد، من هدوئيي القرن الرابع

عشر إلى الأب كوزماس الأيتولي في القرن الثامن عشر، لهذا لم يكن في موقفهم تجاه أوروبا أي ابتكار. لقد رفضوا أيضًا أوروبا ما بعد الانشقاق، نافين عنها أي علاقة بالتقليد الآبائي لاهوتيًا واجتماعيًا، رافضين أي إمكانية لإعادة ولادة الأمة بأنوار أوروبا. غالبًا ما يستخدم الكوليفاذس مصطلح "فرنسا" أو "فرنجة" للتعبير عن الغرب المتفرنج بكليّته. نيقوديموس وأثناسيوس باروس، الذي اعتمد أسلوباً أكثر منهجية ولأسباب خاصة، اقترحا وقف جميع العلاقات مع أوروبا لأن طريقة الوجود التي أوجدتها تفسد ترتيب (تشقلب) الروح الأرثوذكسية.

ب) التربية: اعتبر التنويريون اليونانيون "الفلسفة الجديدة" جوهر التربية المنقّحة، التي فضّلوها للأمة اليونانية وتقدمِها. إن وعي الكوليفاذس في ما يتعلق بـ "الفلسفة الجديدة" حدّد أيضًا موقفهم تجاه التعليم الأوروبي المستورَد. في أعمالهم ذات الصلة، لا سيما عند أثناسيوس باروس، يؤيدون التعليم الذي يقوم على تقليد أجدادهم، بالطبع بحسب فهمهم له. نقطة انطلاقهم، بغض النظر عن مقدار السعي إلى الدوافع الأخرى، هي في الأساس أيضًا تكرار هدوئي آبائي للموقف المماثل الذي تبنّاه القديس كوزما الإيتولي. كما ميزوا أيضاً بين المعرفتين / الحكمتين، التي من "فوق" وتلك "الخارجية" ووضعوا حدودهما. تتطلب الحكمة "التي من فوق" المشاركة الآبائية الكونية للإنسان. جدال أثناسيوس باريوس ضد العلماء لا يعني رفضهم لأنفسهم وبأنفسهم، بل يعني رفض أن يضع الناس رجاءهم الوحيد فيهم. ومن الذين جسّدوا هذا التقليد أيضًا القديس غريغوريوس بالاماس، النموذج الروحي للكوليفاذس. لهذا لجأوا إلى "العلوم" في أعمالهم، ولكن بهدف التقدّم نحو المزيد من الإثبات الروحي. بيان أثناسيوس باريوس واضح: "الحكمة الخارجية بطبيعتها ليست سيئة ولا جيدة، لكنها تصبح جيدة أو سيئة بناءً على كيفية استخدامها من قبل الذين يمتلكونها". إذاً، مشكلة الكوليفاذس التقليديين ليست الحكمة بل الحكيم. وهذا يشمل رفض أثناسيوس باريوس لنظام كوبرنيكوس، وغيره أيضًا. المواقف الأصولية (على سبيل المثال اعتبار الكتاب المقدس مُطلَقاً أو العبارات من نوع "الرياضيات هي مصدر الإلحاد" تُفهَم في هذا السياق وتعود إلى غطرسة العلماء ذوي العقلية الأوروبية والتي هي مشكلة دائمة في المجتمع اليوناني حتى الزمان الحاضر)، فإن ما يسمى بالتعارض بين الإيمان والمعرفة (العلم)، وهو مشكلة زائفة عند الأرثوذكسية واعتراف بأولوية العلم مبرراً بالعقل، يكمن في خلفية موقف التنوير والعدوانية المناهضة للتنوير.

ج) تعزيز النماذج: بمقابل نماذج "حكماء" العالم التي روّج لها التنوير، ردّ الكوليفاذس الآبائيون مقترحين كنموذج حكيمَ التقليد الرومي أو القديس، أي الإنسان المتقدّس أو الإله-الإنسان "بالنعمة". هكذا، تمّ التغلب على المواجهة الأيديولوجية والتعامل مع المشكلة على مستوى الوجود الحقيقي في المسيح. هذا هو سبب إلقائهم كل ثقل مساهمتهم اللاهوتية والرعائية على العبادة التي هي الفُلك

الثابت للأمة اليونانية أثناء العبودية. إنهم يؤكّدون على أهمية الحياة الليتورجيّة التي تتكوّن فيها الروحية الإفخارستيّة عند الجسم الكنسيّ. ليس مفاجئاً إذن أن تكون معظم كتاباتهم مكرسة لهذا الموضوع الذي يشمل: منشورات آبائية تركّز على غريغوريوس بالاماس وسمعان اللاهوتي الحديث الذي أسس نهضة هدوئية في القرن الحادي عشر؛ نشر نصوص آباء الصحراء (حكمة الصحراء) ، نصوص ذات طابع ليتورجي (عظات، خِدَم، سير قديسين، مدائح) وفوق كل ذلك الفيلوكاليا. هذه الأخيرة إذ تقدّم تجربة نسك الأرثوذكسية اليقِظ، صارت الغذاء الروحي لجميع البلدان الأرثوذكسية والسلافية ومعيارًا للاهوتنا الحديث، بكونها "شهادة اختبارية على الأصالة الكنسية". كان خريستوس ياناراس محقًا تمامًا عندما كتب أن نشر كتاب الفيلوكاليا يمثّل "تحديًا في المواجهة بين حضارتين". "من جهة، جنون 'التطور' ، الذي يستوثن بانتصار الاكتفاء الذاتي البَشَرِيُّ التَّمَرْكُز الأجفّ والأشدّ والاكتفاء الذاتي من الطبيعة الفانية [...]، ومن ناحية أخرى، أولوية البحث عن الحقيقة وليس عن المصلحة".

د) الرؤية المجتمعية القومية: كانت الأخلاقيات المسيحية (Χρηστοήθειες) إحدى الوسائل الرئيسية لتشكيل المجتمع الأوروبي، والتي حددت روحية المجتمع الجديد، أي "العلاقات بين الأفراد وبين الجنسين". إنها "دلائل على السلوك الحسن" للمواطن ، "كيف يجلس، كيف يأكل، وكيف يتحدث...." هذه العقليات غزت المجتمع اليوناني من خلال مختلف القنوات وخاصة اليونانيين الذين أنهوا دراستهم في أوروبا نقلوا هذه الأخلاقيات إلى اليونان. يقول الراحل قسطنطين ديماراس مشيراً إلى العواقب: "كل شيء يظهِر أن تغييرًا عميقًا قد حدث في تشكيل المجتمع اليوناني... المحبة التقليدية لما هو حسنٌ وجميل تمرّ بمحنة، إلى أن يتمّ استيعاب ما هو جديد بينما يتم إهمال القديم". إنه تحدي أوروبا للمجتمع. في هذا السياق، لا ينبغي أن ننسى أن البنية التحتية لتشكيل المجتمع الأوروبي ما بعد شارلمان هي لاهوتية، كما أن خلفية المجتمع الرومي هي أيضًا لاهوتية، أي كنائسية. يختبر الكوليفاذس هذا الأمر كونهم شخصيات كنسية ولاهوتيين. وهذا هو السبب في أنهم يجمعون في جهودهم بين تجديد التقليد اللاهوتي والنموذج الاجتماعي الأرثوذكسي الراسخ، الذي يقدّم الشركة الرهبانية ويغرس العبادة في الضمير. هكذا الروحية الاجتماعية الأرثوذكسية تتعزز، بعد الممارسة الأرثوذكسية نفسها، وهي تربط مجتمع العبادة بـ "الليتورجيا بعد الليتورجيا"، وهو الأمر الذي يعبّر عنه "الاحتفال" الكنسي بشكل كامل من خلال ازدواج جوانبه، في داخل الكنيسة وخارجها. ومع ذلك، فإن أخلاقيات القديس نيقوديموس المسيحية تأتي لتغطية القضية من الناحية النظرية. إن مراجع المؤلف بالطبع ليست ثُقَوية، بل آبائية وخاصّة بسير القديسين. لذا، فهي ليست من أجل "قواعد" أخلاقية، بل من أجل خبرة روحية مقدسة. القديس، إذ ينغّص بروحه النسكي الذين تدهرنوا في

الفضاء الكنسي، يقدّم الروحية الأرثوذكسية الآبائية الأصيلة كطريقة للوجود الكنسي. برأيي المتواضع، يجب أولاً وقبل كل شيء أن يؤخذ بعين الاعتبار عمل الكوليفاذس السياسي، ولا سيما أثانسيوس باريوس. إنه النتيجة النهائية لرفض أوروبا ليس فقط أيديولوجياً بل أيضًا إجتماعياً. إن تعليلهم النظري يصادق على هذا الموقف. إن "التبشير بالعبودية" في ظل الحكم العثماني أو "العبودية الطوعية المعللة علميًا" كانت لتكون مؤاتية لو لم يتلهّوا بما أضافه باسيليوس مكريديس: "لحماية الأرثوذكسية من خطر الغرب". ربما لهذا السبب تكون "الحماية الذاتية" أفضل وأكثر واقعية من مصطلح "العبودية الطوعية". مَن يعرف الخطط الأوروبية، وخاصة الفرنسية، للنظام الإثني الرومي في ذلك الوقت، يعرف أن معاداة الكوليفادس لأوروبا ليست بالضرورة تأييداً لتركيا. إن تزامن تطابق الكوليفاذس مع الأهداف المباشرة للسياسة العثمانية حقيقة لا جدال فيها، لكنها هنا متطابقة تمامًا مع موقف الشهيد القومي القديس كوزما الإيتولي، الذي اعتبر النير العثماني معروفًا إلهيًا للعرق اليوناني على أساس موقف أوروبا من الأرثوذكسية. يجب أن يقبل البحث عن تفسير هذه الأمانة الثابتة لتقليد اليونانيين. ومع ذلك، فإن مراجعته تحوّل العلم تلقائيًا إلى سياسة. اقترح أثناسيوس باريوس اعتبار ضحايا الإسلام مثل شهداء الكنيسة الأوائل أو تكريم الشهداء الجدد كقديسين دون موافقة الكنيسة الكبرى. ينبغي اعتبار هذا الاقتراح "مقاومة" عملية لسلطة "ضد المسيح"، الذي كان القديس كوزما يرى أنه السلطان العثماني.

في الختام:

١. إن المواجهة بين الكوليفاذس والتنويريين هي تعارض عالمين مختلفين و"رؤى سياسية"، كنسختين متنافيتين للهلينية. إن اختيار الوسيلة في هذا النضال ليس بنفس أهمية النضال نفسه الذي يكمن وراء الضمائر.

٢. يفترض تقييم موقف الكولِيفاذس إمكانية فهم أهمية الأرثوذكسية بالنسبة لهم، ليس كأيديولوجيا دينية أو تأمل ماورائي، ولكن كطريقة للوجود تقود إلى التقديس الذي هو الوجهة الأرثوذكسية الوحيدة للإنسان، تاريخياً وما بعد التاريخ. من الضروري أيضًا معرفة لغتهم، وهي ليست مجرد اليونانية، بل اليونانية الكنسية لتجنب المزيد من سوء الفهم.

٣. هكذا يُفهم ثبات الكوليفاذس في تقليد اليونانيين، معبراً عنه بالبديهية الكتابية: " لاَ تَنْقُلِ التُّخُمَ الْقَدِيمَ الَّذِي وَضَعَهُ آبَاؤُكَ" (أمثال ٢٢:٢٨).

٤. أخيرًا، يجب أن يُعزى سوء الفهم في النهج التفسيري عند الكوليفاذس إلى تطبيق المعايير الغربية (السياسية - الاقتصادية، أي المادية) وليس معاييرهم (الروحية). إنه خطأ يحاول البحث العلمي اليوم تصحيحه، بالطبع حين يحرر نفسه من ثقل الماضي الضاغط.

Source: Πειραϊκή Εκκλησία, Ιούνιος 2009. Η ΑΛΛΗ ΟΨΙΣ. https://alopsis.gr/η-πρόκληση-του-διαφωτισμού-και-οι-κολ/